التواصل التجاري والثقافي بين الجزائر ومنطقة الساحل

" قراءة في العراقيل وسبل التفعيل".

الدكتور/ عبد الكامل عطية أستاذ محاضر – أ.

كلية العلوم الإنسانية جامعة الشهيد حمه لخضر.الوادي.

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الغربية مالم يلعبه المحيط الأطلسي،من الادوار الحضارية العامة، فقد كانت مسارب الصحراء الى إفريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك،وقد استمر هذا التواصل بين الفضاءين خلال فترة طويلة من العصور الوسيطة والحديثة[1]،غير ان الفترة الحديثة اختلت موازين القوى العالمية وتغيرت الخريطة السياسية للعالم نجم عنه بروز قوى استعمارية أوربية تسعى للبحث عن الاسواق التجارية لجلب المواد الخام واليد العاملة الرخيصة فكانت افريقيا المجال الخصب لهذا المشروع الإستعماري وفي ظل هذه المتغيرات تأثرت العلاقات المغاربية الإفريقية في مختلف المجالات واستمر هذا التأثر الى الفترة المعاصرة، لكن ما يجب علينا طرحه رغم ما عانته البلدان المغاربية والإفريقية من تخلف وتراجع للأدوار الحضارية التي عرفت عبر مراحل التاريخ ،ألا يمكن ايجاد الحلول والسبل لإعادة الاعتبار وتفعيل لتلك العلاقات التي كانت سائدة بين المغاربة وأقطار الساحل الإفريقي؟

[1] عبد القادر زبادية:مملكة سنغاي في عهد الأسقيين(1493-1591)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، د ت ،ص211

أولا: لمحة عن التواصل التجاري والثقافي بين المغاربة–الجزائر– وبلدان الساحل:

أ– **<u>التواصل التجاري</u>**

أفاضت المصادر التاريخية العربية في الحديث عن المبادلات التجارية البالغة الاهمية بين الشمال الإفريقي من جهة والمناطق الإفريقية المحيطة بجنوب الصحراء الكبرى– الساحل الإفريقي– والتي كانت تعرف ببلاد السودان من جهة أخرى، وكانت تصدر الى الشمال عدة منتجات من اهمها الذهب الذي اشتهرت بتوفره فيها،كما انها تستورد من الشمال كثيرا من المواد مثل المنسوجات والمواد المصنوعة والكتب، ومعدن الملح[2].

بدأ قيام المراكز التجارية على أطراف الصحراء، في أماكن الاستقرار، حول الواحات والوديان وتم التبادل التجاري له بصورة بسيطة، في أول الأمر بين السكان المستقرين على أطراف الصحراء، و البدو المتجولين لسد متطلباتهم، نظرا للتباين الواضح بين إنتاج المنطقة الصحراوية والأقاليم المحيطة بها فاتسع نطاق هذا التبادل عندما تم عبور الصحراء بصورة منتظمة منذ العصر الفينيقي، ودخلت سلع منطقتي حوض البحر المتوسط والسافانا جنوبي الصحراء في الميدان التجاري، فازدادت الحركة التجارية، في المحطات الواقعة على مرافئ الصحراء الشمالية والجنوبية، وتغيرت طبيعة الحياة فيها[3]

ومن الصعوبة بمكان إيجاد مدينة مغاربية ليست لها علاقات تجارية مع مدن الصحراء، وبلدان السودان الغربي بحيث انه لو حاولنا رسم خريطة لمسالك قوافل

---

[2] محمد احمد شفيع:التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبيها،أعمال ندوة التواصل،ص 166.

[3] الهادي المبروك الدالي: التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ،ط1،الدار المصرية اللبنانية،1999،القاهرة، ، ص294.

المدن المغاربية المساهمة في التجارة الصحراوية لوجدنا أن كل مدينة تربطها شبكة من الطرق المعقدة المسالك وواسعة الأطراف تصلها بمعظم المدن الصحراوية[4]

ويبدو أن هناك مدنا كثيرة نشأت عن طريق الحركة التجارية بين السودان الغربي وشمالي إفريقيا لخدمة التجارة وبأثر من التجارة نذكر على سبيل المثال ورقلة، توقرت توات، غدامس، سجلماسة وتادمكة وولاته، وغيرها وكان للتجار في هذه المراكز وكلاء وأدلاء وفنادق تؤوي بضائعه و حضائر لجمالهم، وبفعل هذه التجارة نشأت لدى السكان تقاليد في المعاملة ثابتة فهم يستقبلون القوافل بالترحاب وأحيانا بالدفوف فيستفيدون منها ويتعيشون من تجارتها معهم[5]

تعتبر الجزائرية بحكم موقعها الجغرافي منطقة عبور وملتقى لتجارة السودان وأوروبا، ومكانا لمقايضة بضائع المغرب العربي والأقطار العثمانية وهذا ما زاد في أهمية طرق التل التي تربط الحواضر الكبرى كقسنطينة والجزائر ومعسكر وتلمسان، وساعد على انتعاش الواحات الصحراوية كمتليلي وميزاب وورقلة وعين صالح وتوات وغات التي كانت تمر بها القوافل العابرة للصحراء المتنقلة بين إقليم تافيلالت بالمغرب وواحة غدامس بليبيا وحوض النيجر بالسودان، وأبقى صلة الموانئ[6]

- **تلمسان:**

---

[4] بشار قويدر: القوافل التجارية المغاربية، منشورات المركز الوطني للبحوث، 2001، ص13.

[5] عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص28.

[6] ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي:الجزائر في التاريخ، ج4،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر ،1984م.، ص73.

تعد حاضرة تلمسان من أعرق حواضر الجزائر لما لها من ماضيا تاريخيا هاما اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز زاد من كونها كانت عاصمة للمغرب الأوسط أكثر من ثلاثة قرون ازدهر خلالها الفكر وأخصبت الحضارة وتطور العمران،ويتألف إسمها من كلمتين بربريتين هما:(تلم)، ومعناها تجمع و(سان) ومعناها اثنان، ومعناها معا تجمع اثنين "الصحراء و التل بمعنى أنها تجمع بين طبيعة التل والصحراء لوقوعها في مكان ملائم لذلك[7]

ووصفها الوزان قائلا:"... ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان لقربها من نوميديا، ولا أنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان، ولهذه المملكة ميناءان مشهوران، ميناء وهران وميناء المرسى الكبير[8]

مارس عدد كبير من سكان مدينة تلمسان مهنة التجارة ، فكونوا طبقة هامة في المجتمع، ساهمت في مد خزينة الدولة بنسبة هامة من الأموال، وقربها الحكام منهم، ومن أشهر التجار الذين سجل التاريخ أخبارهم الأخوة المقري الخمسة الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة كبيرة في القرن15م[9]

وقد شكل أبناء هذه الأسرة التجارية شركة عرفت بشركة المقريين، قال المقري يذكر أحد أجداده: " ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار... وكان ولد يحي الذين أخذهم أبو بكر

---

[7] يحي بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص19.

[8] الحسن الوزان: وصف إفريقيا،ط2،ج1،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان،1983م، ص9.

[9] لطيفة بشاري: مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني، في مجلة دراسات تراثية، عدد:1، 2007، جامعة الجزائر، ص24.

خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم أمي وأبي بتلمسان وعبد الرحمان وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهما الصغيران بإيولاتن... وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم إليه من السلع ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوزة والتبر و السجلماسي...يعرفهما بقدر الخسران والرحجان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان...» ويحتوي هذا التنظيم،كما يلاحظ على أسس الشركات الكبرى، اليوم خاصة فيما يتعلق بدراسة حاجة المنطقتين تلمسان و بلاد السودان والإهتمام بالعرض والطلب ومعرفة أحوال السوق[10]

- **قسنطينة:**

لقد كانت لحاضرة قسنطينة ارتبطا هاما بتجارة قوافل تونس والصحراء، وقد حافظت هذه الحاضرة على مكانتها التجارية وازدهارها رغم النزاعات المتجددة بين بايات تونس وباياتها التي لم يحل دون خروج قافلة من قسنطينة كل شهر نحو تونس من حوالي 3000 بغل عبر الكاف وأخرى نحو الصحراء عبر بسكرة، تحمل إليها الصوف والجلود و التمور المجلوبة من الواحات والشواشي، وتستورد منها المصنوعات الأوروبية والعطور وبعض المنتجات المحلية والأجنبية مثل التوابل والقهوة والأقمشة الحريرية[11]

وعرفت قسنطينة بصناعات أهمها صناعة النحاس وكان جزء منه يصدره للنواحي القريبة والبعيدة، وترتبط تجارتها مع المدن المجاورة لها مثل نقاوس ومقرة،

---

[10] نفسه،ص25.

[11] نفسه، ص153

مسيلة، عنابة، توقرت، سوف، ورجلان وغيرها من المدن الشرقية والغربية والواحات الصحراوية والسودان الغربي[12]

- **سوف:**

عرفت حاضرة سوف كأكبر سوق في الجهة يؤمها التجار من مختلف الواحات وتشتمل على أكثر من 300 حانوت، أهم مواردها من التمور التي تنتج من أنواعها الجيدة كميات هائلة، وكذلك التبغ بنوعيه الرطب والقوي، وكذلك صناعات المضلات من سعف النخيل،والأقمشة الصوفية العادية أما سكانها فقد اشتهروا بالمهارة في التجارة وفي تسيير القوافل في الكثبان الرملية[13]

وعلى الرغم من أن الوادي كانت تمثل همزة وصل بين الشمال والجنوب فإن اتصالاتها بقسنطينة مقر (البايلك) لم تكن متعددة وإنما كان تجارها يكتفون بالذهاب إلى بسكرة أو توقرت لاستيراد ما يمكن أن يصدر إلى الخارج من المنتجات الجزائرية والسبب في هذا الإحجام عن عاصمة الشرق ليس هو التخوف من الضرائب التي يفرضها البايلك كما يرغم بعض المؤرخين أمثال"رينوماريس، وكاريت" وإنما كان أبناء سوف يفضلون الذهاب إلى المدن التونسية لأنها الأقرب إليهم، ولأنها تقدم لهم جميع المواد الأوروبية بأسعار لا تنافس[14]

كما أن تجار الوادي كانوا يجمعون مائة وخمسين منهم من حين إلى أخر إلى مدينة غدامس يحملون إليها العملة ومختلف أنواع المصنوعات والمنتجات المحلية

---

[12] حساني مختار: دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان،1983م ، ص272.

[13] العربي الزبيري: التجارة الخارجية لشرق الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1972م.المرجع السابق، ص ص 155-154.

[14] نفسه، المرجع السابق، ص155.

والأجنبية، ويجلبون منها العبيد والتبر والعاج، وريش النعام والبخور النترون وغيرها مما تستورده غدامس من السودان[15]

كانت وادي سوف خلال هذه المرحلة ترتبط بالجزائر بواسطة الطريق القطري الغربي الذي يربطها بالعاصمة ويمر بمدينتي بسكرة وبوسعادة، وفيما يتعلق بالسودان الغربي فكان الطريق الذي تسلكه قوافل وادي سوف هو طريق سوف غدامس ومن هذه الأخيرة يكون الانتقال إلى السودان الغربي والأوسط[16]

ب- التواصل الثقافي:

كان للإسلام الفضل الاكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين الى اماكن كثيرة من افريقيا جنوب الصحراء، ولم يكن لجهود الوعاظ والدعاة ولا حلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالآداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة، أما الطابع الثقافي، فلم يخرج عن النطاق الديني أيضا[17].

ساعدت وسائل عديدة على انتشار الثقافة الإسلام والثقافة العربية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، وقد سارت هذه الوسائل في يسر وبطء منذ بواكير الدعوة الإسلامية، وعبر عدة قرون حتى أسفرت عن ظهور مراكز تجارية وثقافية مزدهرة على حافتي الصحراء، حيث اتسعت رقعتها في أقصى الحدود الششمالية للمنطقة الى تخومها الجنوبية على اطراف الغابة الإستوائية، وكانت تلك المراكز التى بدأت كمحطات للقوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى قد اصبحت آهلة بالسكان،

---

[15] نفسه.

[16] حساني مختار، المرجع السابق، ص57، وإبراهيم مياسي، تاريخ وادي سوف، ص67.

[17] محمد الغربي: الحكم المغربي في السودان الغربي،ج1،ص509

واستقطبت التجار والعلماء والدعاة والفقهاء والصالحين، وبالتالي صارت منارات ومراكز إشعاع ثقافي[18].

أدى التواصل الحضاري بين الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي، و لاسيما بعد القرن 05هـ / 11م إلى قيام مراكز ثقافية أدت أدوارا مهمة فيما وراء الصحراء الكبرى، وأصبحت منارات علمية زاهرة يؤمها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب، وقد شهدت هذه المراكز الثقافية خاصة في فترة ما بين القرنين 14 – 16م نهضة ثقافية فكرية متأثرة في ذلك بالنهضة الثقافية التي كانت سائدة في مناطق ومدن الشمال الإفريقي مثل فاس، مراكش، تلمسان، وطرابلس، وتونس، والقيروان، وتوات وسجلماسة وغيرها ، وكان من أبرز المراكز الثقافية في السودان الغربي وفي طليعتها تمبكتو وجنى، وغاو، وونياني، ورغم أن هذه المراكز قد قامت في بادئ الأمر على هيئة مراكز تجارية فإنها أيضا دورا ثقافية وفكرية[19]

ولعل من ابرز الامثلة عن التواصل الثقافي والفكري نذكر مثلا الكتاب المخطوط الذي حظي بالعناية من خلال التأيف او النسخ او الشراء وتزخر خزائن بعض الحواضر الجزائرية مثل خزائن ادرار،او بشار وتندوف وحتى المكتبة الوطنية

---

[18] سعد مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السوداني الغربي، دار المدار الإسلامي،ط01، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2005م المرجع السابق،ص149.

[19] مسعود بن محمد علي: تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان

، في السودان الغربي، ط01،منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ص104.

الجزائرية رغم انني لم أطلع عليها، بهذا النوع من المخطوطات الذي يعود لعلماء السودان الذين ألفوا في التاريخ والفقه والادب والتراجم والرحلات[20]

ومع اتساع الحركة الفكرية في نهاية القرن السادس عشر، واتساع استيراد الكتب من المشرق والمغرب وتشجيع الحكم المغربي بعد قيامه بالسودان على الترويج للثقافة العربية، وتوفر الورق وزيادة عدد المتعلمين أصبح الكتاب يلاقي رواجا كبيرا فيقتنيه أكثر الناس للانتفاع به أو للتبرك أو للزينة، وكانت أثمان الكتب مرتفعة بالقياس إلى مراكش أو فاس، وأغلى الأثمان كان يدفع في الكتب المغربية مثل المعيار للونشريسي، وأرجوزة المغيلي مع شروحها[21]

كذلك رحلة العلماء وسياحتهم العلمية بين الأقطار السودانية والمغاربية كتنقل علماء السودان الى الحواضر الصحراوية الجزائرية كتوات،ورجلان،وتلمسان وغيرها غما للحج أو طلب العلم أو التجارة ولعل من أبرز الامثلة تنقل العلم الجزائري والمصلح الشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلي الى أقطار السودان ولاتزال أثار لليوم في هذه الأقطار،وكذلك تنقل العلامة السوداني الى المغرب الاقصى الذي اكتوى بنار الصراع السعدي السنغي ودخل مكرها الى مراكش ونهل من ذخائر خزائنها وجالس العلماء وطلبتها وألف فيها العديد من المؤلفات وغيره من العلماء الاجلاء[22].

[20] حسن الصادقي:جوانب من التواصل الثقافي شمال – جنوب، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي،ص264.

[21] محمد الغربي، المرجع السابق، ص556 .

[22] حسن الصادقي:جوانب من التواصل الثقافي شمال – جنوب، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي،ص264.

للتصوف مكانته الخاصة في نسيج التواصل أذ كان للزوايا في الضفتين شيوخ وأتباع يتزاورون ويتثاقفون وادى ذلك الى إغناء المكتبة الصوفية بتآليف عدة في النصح والأرشاد والاوراد[23].

ان حالة الفساد التى عمت الطبقة الحاكمة في آخر عهد مملكة سنغاي، ادت الى بروز طبقة من المتصوفة أغلبهم من أصل مغربي نادوا بتغيير المنكر ومساندة المسلمين والإعتناء بالدين ومن أبرزهم سيدي يحي،الشيخ محمد ابن عبد الكريم التلمساني،وبعض علماء آل آقيت،وكان أولئك المفكرون والمتصوفة يتجولون في البلاد داعين الى مناهضة الكفار وتجنب الفساد والرجوع الى جادة الشرع.[24]

يمكننا القول ان المظهر الطرقي هو صبغة تلقائية لنموذج السلوك الديني والتفكيري المتبادل بين المنطقتين، وان هذه الطرق كانت وراء اهم التحركات الشعبية والذي كان احد أقطابها "الحاج عمر الفوتي"[25] التجاني الذي يعتبر احد زعماء التغيير

---

23 نفسه،ص265

24 محمد الغربي، المرجع السابق، ص559 .

25 ولد الحاج عمرالفوتي 1212هـ الموافق لـ 1797بحلوار بالقرب من بدور في إقليم فوتا تورو بقطر السنغال .وتربى وترعرع بين أبوين كريمين وحفظ القرآن الكريم عن والده الشيخ سعيد بن عثمان،ثم اجتهد في تحصيل العلوم الشرعية حتى أشير إليه بالبنان في المنقول والمعقول،أخذ مبادئ الطريقة التجانية عن الشيخ مولود فال الشنقيطي وكذا عن الشيخ عبد الكريم الأوراد اللازمة للطريقة ،وقد أدى الحاج عمر فريضة الحج وأقام بمكة حوالي ثلاث سنوات درس خلالها على يد زعيم الطريقة التجانية محمد الغالي،الذي عينه خليفة للتجانية في السودان الغربي ثم مر الحاج عمر على القاهرة وزار الأزهر الشريف حتى التقى بكبار العلماء ورجال الدين وعلماء الصوفية ، وعندما عاد إلى السودان استقر بعض السنوات في سوكوتو حيث استقبل من قبل أميرها محمد بلو بن عثمان فوديو وتزوج **أبنته،وأخذ عنه محمد بلو** مبادئ الطريقة التجانية ولا شك أن رحلات الحاج عمر إلى مكة والقاهرة وسوكوتو قد أفادته كثيرا فزادت ثقافته الدينية وأطلع على شؤون العالم الإسلامي ولعل أهم نتيجة لهذه الرحلات هو أنه أصبح زعيما للطريقة التجانية في السودان الغربي ورغم إشتغاله بالجهاد والدعوة والأسفار الطويلة كان شديد الاهتمام بالعلم ،ففتح عدة مدارس للتعليم تخرج منها أئمة وعلماء ،وقد ألف عدة كتب أهمها: (رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم) و(سفينة السعادة).أنظر: محمد الحافظ التجاني:الحاج عمر سلطان الدولة التجانية،الزاوية التجانية بالقاهرة ،مصر،د.ت،ص9. وإلهام علي ذهني : المرجع السابق ،ص48.و تلمساني بن يوسف: المرجع السابق،ص 114.واحمد

الاجتماعي والسياسي في افريقيا جنوب الصحراء، خاصة عندما لاحظ لدى رجوعه من الحجاز عن طريق القاهرة أنه: « لم يشاهد في رحلته من السنغال الى بورنو رجالا بل أبقارا وغنما»[26]

وتعد الأجازات مظهر آخر مرتبط بالكتابة إذ تبودلت بين العلماء،أو طلب البعض الحصول عليها.ومن الامثلة إجازات احمد بابا التمبكتي لكل من المقري، وعبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي،وابن الوفاء وعبد الرحمان التلمساني (إجازتان) وعبد الرحمان المناري (التمنرتي) ونصوصها موجودة وهب خير دليل على التواصل الثقافي بين الاقطار الإفريقية.[27]

وكذلك الفتاوى وهي تعبير عن إهتمام علماء الوقت بما يروج من امور مرتبطة بالدين والدنيا. شارك فيها علماء ضفتي الصحراء.وتبودلت الرسائل والكتب ومن هاته المسائل التى شغلت العامة والخاصة ،مسألة العبيد،مسألة التبغ،مسألة الاعراف:(رسائل اهل توات الى احمد بابا التمبكتي حول مجلوب السودان) بعنوان معراج الصعود الى نيل حكم مجلب السود أو الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان،اللمغ في الإشارة لحكم التبغ (ضمن أجوبة حول التبغ لعلماء من المشرق والمغرب والسودان) ،فتوى حول أعراف جزولة وتوجد ضمن مجموعة الفتاوى في كتاب الفوائد الجمة للتمرنتى،وهاته الفتاوى نموذج للتواصل الفكري بين علماء ضفتي الصحراء ودليل على سعة الصدر ورحابته وتقبل الآخر بدون مركب نقص علمي[28].

بوعتروس:الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء،دار الهدى،2009م،ص306 ومابعدها

[26] عبد الجليل التميمي:الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا،ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث،(العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية)،المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة،تونس 1985،ص69.

[27] حسن الصادقي: المرجع السابق،ص 265

[28] نفسه.

ثانيا: العراقيل وسبل التفعيل:

أ- العراقيل:

عرفت بلاد السودان تهميشا كبيرا من طرف المؤرخين السابقين من يونان ورومان امثال هيردوت،وديودور الصقلي وبلين وقبله سطرابون وغيرهم باعتبارهم كانوا يعتبرونها أرضا مجهولة لدرجة انهم نعتوها في كتاباتهم بالمنطقة الحارة zone torride والتي تستحيل الحياة بها والأكثر من هذا ان جل ما كتب عن المنطقة قبل القرن الخامس عشر ميلادي كان بأقلام أشخاص لم يسبق لهم ان تجاوزوا جنوب منطقة افريقيا الشمالية[29]

ضف الى ذلك تصوير الكثير من المستشرقين والمتأفرقون تشويه الحقائق الظاهرة والقواعد الثابتة التي تؤكد التوافق الفكري والتكامل الثقافي عند حديثهم عن العلاقات بين الشمال والجنوب، وقد صور هؤلاء العلماء الغربيون العلاقات بين سكان الشمال افريقيا وجيرانهم في الجنوب بانها علاقة بين جنسين: (أرقى) قادم من الشمال ليفرض مؤسساته على جنس (أدنى) هم سكان الجنوب،أو بانها علاقة بين غاز بفرض ثقافته على مجتمعات الزنوج بالقوة، والقول بان الصحراء تمثل حاجزا ضخما وعائقا طبيعيا يفصل بين حضارتين وشعبين مختلفين تماما وقد استطاع هؤلاء فعلا بإقناع الكثير من أبناء الضفتين بهذا الطرح الغير مقبول واقعيا وتاريخيا[30].

[29] مصطفى بن شقرون: دور التجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب افريقيا في العصر الوسيط،، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي،ص60

[30] عبد السلام أبو سعد: العلاقات الثقافية بين الشعوب الأفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي،ص16.

ولا ننسى الدور السلبي للآلة الاستعمارية وما خلفته من حرق وإتلاف ونهب لذخائر التراث الإفريقي من مخطوطات وتحف فنية خلال الحروب التي شهدتها المنطقة خلال القرنين الميلاديين 19و20 ،وليس ببعيد ما اقترفته يد العصابات المتطرفة عند حرقها مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية [31]

الشيء الذي يجعل الدارس لهذه المنطقة يصطدم بصعوبات متعددة من اهمها قلة المادة التاريخية وندرة الاخبار والمعلومات الواردة فيها وغياب محتواها العلمي وطغيان الخيال عليها. إلى جانب هذا وذاك فإن الكتابات لم تتسع لتشمل كل الجوانب التاريخية بهذه المنطقة إلا مع وصول الإسلام الى الشمال الإفريقي في أواسط القرن السابع الميلادي. حيث بدأت تصلنا اخبار أقطار بلاد السودان– افريقيا جنوب الصحراء–بشكل مباشر ومستمر عن طريق الحجاج والتجار القادمين منها او العائدين إليها.[32]

---

[31] أسّست حكومة مالي مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، أو كما يقال "سيدراب" اختصاراً باللغة بالفرنسية، في تمبكتو عام 1973. وتعود نشأة المركز أصلاً إلى الاجتماع الذي عقدته منظمة اليونسكو عام 1967 في تمبكتو لتخطيط عدد من مجلدات اليونيسكو عن تاريخ إفريقيا. وفي نهاية الاجتماع تم الخروج بقرارٍ يدعو حكومة مالي لإنشاء مركز للحفاظ على المخطوطات العربية في تمبكتو. وتم تشييد هذا المركز في المقام الأول بتمويل من دولة الكويت حيث بدأ المركز أعماله على الفور في جمع المخطوطات، ويضم مركز أحمد بابا حالياً حوالي 30 ألف مخطوطة تم جمعها بفضل جهود بعض الأشخاص البارزين بما فيهم الدكتور محمود الزبير، أول مدير للمركز، وعبد القادر حيدرة الذي بدأ العمل بسيدراب (مركز أحمد بابا) قبل إنشاء مكتبة عائلته الخاصة. ولازالت كمية المخطوطات الحالية قليلة مقارنةً بالعدد المقدر وجوده في المنطقة. وقد نشرت بالفعل مؤسسة "الفرقان للتراث الإسلامي" كاتالوج، غير مكتمل حتى الآن، يضم حوالي 9000 مخطوطة من مجموعة سيدراب للمزيد ينظر: /www.tombouctoumanuscripts.org24-09-2017

[32] مصطفى بن شقرون:المرجع السابق،ص 60.

من ابرز سمات التواصل الحضاري بين الضفتين هو الرابط اللغوي فاللغة العربية في افريقيا الغربية كنموذج تعد لغة الفكر والحضارة حيث انها تعتبر من بين اللغات المنتشرة بين الجماهير الشعبية والمعروفة لدى أغلب السكان، إن المسلمين في غرب افريقيا يشكلون الأغلبية السكانية95٪وهم يحرصون جميعا على تعلم اللغة العربية، و لا شيء يدل على عمق مكانة اللغة العربية في غرب افريقيا سوى ان المراجع التاريخية القديمة اكثرها باللغة العربية، وفي هذا المجال يقول احد الكتاب الأوربيين معبرا عن مدى ارتباط إفريقيا باللغة العربية لغة الحضارة: « إننا إذا نزعنا الوثائق التاريخية باللغة العربية لا يبقى ثمة تاريخ يعتد به لإفريقيا السوداء».

وقد قال احد وزراء زنجبار في ذلك: « يكفي للتدليل على مكانة لغة العرب بالنسبة لإفريقيا ان نعلم أنه لا يوجد في اللغة السواحلية كلمة مرادفة لكلمة تحضر أو تمدن سوى كلمة تعريب، فإذا أردنا أن نتحدث عن مشروع لتطوير قرية زراعية قلنا: « تعريب تلك القرية »[33].

ومن هذا المنطلق أعتبر الاستعمار الفرنسي في غرب افريقيا كنموذجا أن اللغة الفرنسية والديانة المسيحية مظهرين من مظاهر التبعية والسيطرة على الشعوب،لذلك حرص على نشر لغته وديانته بين أوساطها، ورسم خطة سياسية تتمثل في خلق نخبة من الأفارقة مواليه له تتكلم لغته، وتدين بديانته وتفكر بأفكاره، وفعلا قد نجح الاستعمار الفرنسي مثلا في مشروعه هذا، بحيث استطاع أن يترك أعوانا له وحراصا على مصالحه بوفاء وإخلاص في ،ليس في غرب أفريقيا فحسب بل في كامل القارة الإفريقية ومن الامثلة على ذلك إنشاء فرنسا الاستعمارية للعديد من المؤسسات التعليمية في السنغال لتحقيق هذه الغاية منها: مدرسة الرهائن ،ومدرسة أبناء رؤساء

[33] الهادي الدالي وعمار هلال: دراسة في حركة التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا في ما وراء الصحراء،ط1،الدار المصرية اللبنانية،2002،ص ص 136-137.

القبائل ،ومدرسة بنات رؤساء القبائل والمدارس الفرنسية الإسلامية، والهدف كما ذكرنا سالفا هو إنشاء نخبة إفريقية متأثرة بالثقافة الغربية وموالية للاستعمار الفرنسي في البلاد.[34]

ومن الادوار السلبية التي لعبها المجتمع الغربي في القارة الإفريقية هو الإتجار بالأفارقة وهذا النوع كان له تأثير خطير على حياة المجتمعات الإفريقية في ما بينها وفي علاقاتها مع المجتمعات المجاورة ومن النتائج الوخيمة التي خلفتها هذه التجارة:

- تعرض القارة الإفريقية وخاصة افريقية الغربية الى اكبر عملية تهجير في التاريخ ترتب عليها تغيير جذري في توزيع الاجناس في القارة.
- تدمير اقتصاديات الممالك الإفريقية التي ارتقت في ما بعد الى دول هزيلة فقيرة تعيش على المساعدات الدولية وغير قادرة على نسج علاقات ثقافية واقتصادية مع دول الجوار–مثلا :العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وبلدان الساحل مثلا لا ترقى لعلاقات قوية تعكس الإمكانيات الهائلة التي تمتع بها هذه الدول فنسبة التعامل البيني في المجالات الاقتصادية والثقافية ضئيلة جدا في حين نجدها مرتفعة مع البلدان الأوربية وهذا يعد مشكل بحاجة الى التدارك من قبل أهل الاختصاص لأننا في حاجة ماسة لإحداث التكامل والتعاون الجاد مع هذه الدول القريبة والصديقة.
- إشعال الحروب بين القبائل والدول وخلق جو من الفوضى والاضطراب ولاتزال أثارها لليوم.
- كانت هذه العمليات من الاستنزاف البشري المستمر وبالا على الحضارات الإفريقية –وكما ذكر الكاتب الامريكي الزنجي "وليم تشانسلور"–هل بعد كل

[34] نفسه،ص 131.

الذي عانته القارة نتيجة تجارة الرقيق لازلنا نتساءل عن السبب في تأخر الأفارقة الحضاري.[35]

ب- سبل التفعيل:

من السبل الممكن اتباعها في سبيل تفعيل حركية التواصل الحضاري بين بلدان المغرب العربي عامة والجزائر خاصة بمكن ايجازها في النقاط الآتية: – العناية باللغة العربية ونشرها بين الأخوة الأفارقة فعن طريقها يستطيعون الاتصال بمصادر تراهم الإسلامي من كتب الفقه والحديث والتفسير وغيرها،وبها ينظرون في تاريخهم الثقافي والاجتماعي والسياسي ،وابراز جهود إخوانهم العرب والمسلمون في الدور الهام في حياتهم[36].

- لقد ساهمت البعثات العلمية المتجددة بين بلدان الشمال والساحل الى تدعيم عرى الترابط التواصل فكان الهدف تعلم الثقافة العربية الإسلامية وعلوم القران، فكان علماء الشمال يذهبون الى الجنوب ويحملون معهم الكتب والمؤلفات بناء على طلب أهل الجنوب والمسؤولين فيهم وطلاب الجنوب يذهبون الى الشمال بناء على رغبتهم في التعلم، ولايزال الأزهر قبلة الطلاب والعلماء المسلمين من انحاء إفريقيا، وكذلك الشأن مع الجامعات المغاربية، كالجامعات الجزائرية فهي تخصص منحا دراسية للطلاب الأفارقة، ويتلقون العلم مجانا، وغيره من الخدمات الاخرى تسهيلا لهم لتلقى العلوم والعودة

[35] شوقي عطاالله الجمل:دور المجتمع الغربي في تطور تجارة الرقيق،المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة،مسألة الرق في إفريقيا،تونس 1989،ص51

[36] عبد السلام أبوسعد:العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي،ص 28

بشهاداتهم لبلدانهم حيث يتم توظيفهم في مناصب هامة ومختلفة في البلد الأم[37].

- العناية بتاريخ المنطقة وإدخاله الى مناهج التعليم فيها، وذلك لأن دراسة هذا التاريخ تظهر لنا بكل وضوح تلك العلاقات العريقة بين أبناء المنطقة، مما يعتبر احسن وسيلة للتوعية والإقناع بضرورة العمل على استعادة هذا التاريخ.
- العناية بالتراث العربي الإسلامي المخطوط والذي يحوي الكثير من عناصر تاريخ المنطقة وتواصلها القديم في الميادين التجارية والثقافية والسياسية والدينية، وذلك للعمل على تصحيحه وظبطه والتعليق عليه وطبعه ونشره ليطلع عليه أبناء المنطقة
- تشجيع الباحثين على تكريس جزء من أبحاثهم لهذا الميدان،وكذلك العمل علة إنشاء هيئة من الباحثين المتخصصون والمهتمين بموضوع التواصل الحضاري، وتتكفل بالنشاطات الت لها صلة بالموضوع، كما ينبغي ان يكون لها مجلة متخصصة تنشر نتائج البحوث والدراسات المتعلقة بالموضوع بمختلف اللغات، كما لا ننسى دعوة القيادات العليا صاحبة القرار في بلدان المنطقة وتوجيهها على العمل على تشجيع التواصل بين بلدان المنطقة في الميادين الثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها[38].

---

[37] نفسه ،ص ص30-31

[38] محمد احمد شفيع: المرجع السابق ص ص 173-174